مجلة المعالم

العدد : ١٨٨ الموافق في ذو القعدة ١٤١٧ هجري ٤ / ١٩٩٧ ميلادي

| عنوان المقال : حول مفهوم الرأي | بقلم : إبراهيم عبد الله |
|---|---|

لقد تضارب القول في مفهوم الرأي ، فقبله من قبله ورفضه من رفضه. ويضيق هذا المفهوم في حياة الناس عندما لا يسمح الإطار الثقافي بذلك من جهة ، أو عندما يسود جو يضيق ذرعاً بالاختلاف من جهة أخرى. وينفسح المجال له عندما يتسع لذلك الإطار الثقافي ويسود جو يرحب بفكرة الاختلاف ، ويعتبرها دعماً للفكر وتنشيطاً له وفتحاً لآفاق ممكنة. كما أن الرأي كمفهوم اختلفت دلالاته عبر الفضاءات الثقافية التي أنتجته ، وإن كانت هناك دلالة مشتركة ثاوية في صميم هذه الدلالات تنطق بوحدة الأصل.

-١- عرف مفهوم الرأي وضعية قلقة متضاربة في تاريخنا الثقافي الإسلامي ، منذ انقسام فقهائنا الأوائل إلى مدرستين : مدرسة أهل الرأي ومدرسة أهل الحديث. عندئذ بدأ التنظير للرأي ؛ سواء من حيث قبوله ، أو من حيث رفضه :

❋ فالذين قبلوه استندوا إلى قول معاذ بن جبل في الحديث الشهير « أجتهد رأيي ولا آلو » ، وأسسوا له باعتبار أن (**الرأي هو إدراك صواب حكم لم ينص عليه... [وأنه] استخراج صواب العاقبة**)[١] ، وأنه ( **ما يراه القلب بعد تفكر وتأمل وطلب لمعرفة الصواب مما تعارض فيه الأمارات**)[٢] ، ولقد كان للرأي أهله في المجتمع الإسلامي ، فإن ظهور مدرسة الرأي كان حدثاً مهماً في تاريخ التشريع الإسلامي حيث انتشرت هذه المدرسة في العراق. وقد علمت هذه المدرسة المسلمين (أن أحكام الشرع معقولة المعنى ، مشتملة على مصالح راجعة للعباد ، وحكم شرعت لأجله تلك الأحكام ، وأن على أهل العلم البحث عن تلك الحكم والعلل الضابطة وربط الأحكام بها ، وجعلها تدور وجوداً وعدماً معها ، فإذا عثروا على تلك العلل ربما قدموا الأقيسة القائمة عليها على بعض أنواع الأحاديث إذا عارضتها) [٣].

وترجع أصول هذه المدرسة الفقهية إلى الفاروق عمر بن الخطاب الذي كان أكثر الصحابة تأثراً بالرأي وأشجعهم عليه ، وأقدرهم على استجلاء العلل بقياس الفروع على الأصول ، وهو المنهج الذي تأثر به الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، الذي وضع أسس منهج فقهي يعتمد على الرأي قامت عليه مدرسة الرأي في العراق. فإذا كانت مدرسة أهل الحديث تتوقف عن الفتوى فيما لا نص فيه ، ولا تلجأ إلى الرأي إلا في أضيق الحدود مع كراهيتها له ، فإن مدرسة أهل الرأي لم تكن تتهيب الفتيا ولا تخشى

من إبداء الرأي في أي مسألة معروضة عليها ، سواء كانت واقعية أو افتراضية ، وذلك لاعتقادها أن الحكم الشرعي المنصوص عليه معلل بعلة ، ومهمة الفقيه هي الكشف عنها عن طريق استعمال القياس ، الذي يضمن إلحاق الفروع غير المنصوص على حكمها بالأصول المنصوص على حكمها[٤].

❋ لقد احتفى المسلمون بالرأي كثيراً ، بل إن كلمة الفقه التي احتلت في حياة المسلمين عبر تاريخهم الطويل مركزاً هاماً - حتى سمى البعض حضارة المسلمين حضارة فقه - تفيد بحد ذاتها معنى الفهم وتعطي معنى الرأي. لكن حساسية المسلمين الكبرى من أن تدخل من الرأي البدعة في الدين ، أو أن يكون هذا الرأي سبباً في رفض الحديث ، جعلهم يقفون منه موقف الحذر المتوجس ؛ فهذا ابن عبد البر في كتابه المهم « جامع بيان العلم وفضله » يبين لما (أفرط أصحاب الحديث في ذم أبي حنيفة وتجاوزوا الحد في ذلك ، والسبب في ذلك عندهم إدخاله الرأي والقياس على الآثار واعتبارهما ، وأكثر أهل العلم يقولون إذا صح الأثر بطل القياس والنظر) لكن ابن عبد البر في نفس السياق لا يلوم الإمام أبا حنيفة على قوله بالرأي ، إنه كما يقول : (وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل في آية أو مذهب في سنة ، رد من أجل ذلك المذهب سنة أخرى بتأويل ناسخ أو ادعاء نسخ ، إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيراً ، وهو يوجد لغيره قليل) [الجزء الثاني:١٢١]. إذن فذنب الإمام عند من خالفه هو كثرة فزعه للرأي وليس لجوء إليه لأن اللجوء إلى الرأي كان منهجية علمية عند كثير من علماء هذه الأمة بنسب مختلفة ، (وليس أحد من علماء الأمة - كما يقول ابن عبد البر - يثبت حديثاً عن النبي ﷺ ثم يرده دون ادعاء نسخ عليه بأثر مثله أو بإجماع ، أو بعمل يجب على أصله الانقياد إليه ، أو طعن في سنده. ولو فعل ذلك أحد سقطت عدالته فضلاً عن أنه يتخذ إماماً ، ولزمه إثم الفسق)[جامع بيان العلم:١٨٢] ، إذن فعدالة الأئمة الذين فزعوا إلى الرأي فوق كل شبهة ، فقد تواتر من شيم الصحابة ﷺ (أنهم كانوا يطلبون حكم الواقعة من كتاب الله تعالى ، فإن لم يصادفوه فتشوا في سنن رسول الله ﷺ ، فإن لم يجدوا اشتوروا ورجعوا إلى الرأي)[٥] ، لكن ظل جمهور المسلمين دوماً يحترزون من الرأي خيفة الضلال في الدين بتحكيم عقلهم في المسائل فيفتوا فيها بهواهم ، معتبرين أن « الحجة لا توجد إلا في الآثار » خاصة بعدما ظهرت الفتن الكلامية التي مست من الدين أصوله بدعوى أسبقية العقل على السمع. لكن علماء الأمة كانوا دائماً مميزين باليقظة العلمية فميزوا بين الرأي المذموم والرأي الحسن ؛ فالأول اعتبروه قولاً ( في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات ورد الفروع والنوازل بعضها على بعض قياساً ، دون ردها إلى أصولها والنظر في عللها واعتبارها...) ،

والثاني اعتبروا حسنه في اجتماع الناس عليه[٦] ، لكن ما قوى القطيعة بين الرأي والحديث ما ذكره الإمام أحمد من (أن أصحاب الرأي كانوا يهزؤون من أصحاب الحديث حتى علمهم الشافعي وأقام الحجة عليهم)[٧] ، مُرجعاً هذا التمييز بين الرأي والحديث إلى خصومات ليست كلها علمية ، لكن هذا التمييز لم يمنع الحافظ ابن عبد البر من أن يعتبر الرأي الحسن وزير العلم [٨] ، ويؤكد مع أيوب بن القرية أن العاقل سجيته الرأي الحسن[٩].

إن علماءنا الأوائل اختلفوا في قبول الرأي ورفضه ، لا ضيقاً في الأفق أو رغبة في التميز المذموم من قبيل « خالف تعرف » ، وإنما الذي دفعهم إلى هذا الاختلاف هذا الإطار الثقافي الذي بناه الإسلام بوحي من الله تعالى ، وخوف المسلمين من أن يداخل هذا الإسلام العظيم من التغيير والتأويل والتحريف ما يخرجه عن براءته الأصلية ، من هنا كان هذا التردد في قبول الرأي أو رفضه ، وإن كان هذا التردد والرفض لم يمنع ثقافتنا الإسلامية من أن تعرف ثراء كثيراً في أنساق علمية ، كان الرأي من ورائها ، والذي أصبح المسلمون يعبرون عنه من خلال مصطلح الاجتهاد الذي تم تقعيده في هذا العلم العجيب الذي أبدعه المسلمون « علم أصول الفقه » ، الذي اعتبر الفضاء الطبيعي الذي تحرك فيه الرأي المرتبط بالنصوص ، من خلال عملية القياس وغيرها من الأصول التي جعلها المسلمون ركيزة للتشريع ، ليبدع مذاهب فقهية جليلة ستحفظ للإسلام وجوده وحيويته ، ومذهب الشافعي القديم والجديد ، وقدرة هذا الإمام الخارقة على إبداع هذا العلم في مصنفه « الرسالة » والذي اعتبره مصطفى عبد الرازق الموطن الحقيقي لفلسفة المسلمين والذي جمع فيه بين الفرقاء ، أكبر دليل على هذه الحيوية العلمية التي يعرفها الإسلام عندما يقع في يد مجتهد ومبدع كبير.

❋ ❋ ❋

-٢- لقد اعتبر الحافظ ابن عبد البر الرأي « ليس بعلم حقيقة » وهو في هذا يميزه عن العلم الحقيقي الذي يعطيه علم الحديث فضلاً عن آي الذكر الحكيم ، وابن عبد البر محق في هذا ولا شك ، لكن السؤال الذي نطرحه هنا : ما الذي يجعل الرأي بصفة عامة أبعد عن العلم الحقيقي ؟ وما الذي يجعل من الضروري صيانة الرأي رغم أنه لا يعطي في نهاية المطاف إلا ظناً إن لم يقدم في أحايين كثيرة إلا وهماً ؟

إننا لن نقدم هنا إجابة ضافية عن هذا السؤال وإنما هي مقاربة أولية لمعالجته من خلال استنطاق بعض جوانب معالجة الفكر الفلسفي والعلمي الحديث والمعاصر لهذا المفهوم ، الذي نعتبره في جوانب

كثيرة منه إضاءة من الإضاءات الهامة في هذا المجال. فهذا الفكر يلتقي في موقفه من الرأي مع موقف كثير من مفكرينا المسلمين الذين ميزوا بين العلم والرأي وطابقوا بين الرأي والظن[١٠]. فهذا الفيلسوف الألماني " كنت " في كتابه " Critique de la raison pure " [ص:٥٥٢] يعتبر الرأي اعتقاداً يملك وعياً ناقصاً سواء من الناحية الذاتية أو من الناحية الموضوعية ، وهكذا فالرأي عند " كنت " إذن يملك في ذاته أسباب قصوره ، إنه يولد معاقاً منذ النشأة الأولى ، لذا يجب الحذر منه وعدم الثقة فيه ثقة مطلقة ، والبحث دوماً على سبل تصحيحه ، وهو ما مارسه المسلمون طوال تاريخهم العلمي فيما اصطلح عليه بالخلاف العالي ، الذي كان الحلبة التي تصارعت فيها الآراء والمذاهب العلمية المختلفة من أجل البحث عن الصالح والأصلح من الآراء الاجتهادية.

إن هذا التعريف " الكنتي " للرأي نجد في العلم المعاصر ما يوضحه بجهة أخرى من النظر في شخص الإبستمولوجي الفرنسي " G. Bachlard " الذي قدم تعريفاً طريفاً يعتبر الرأي « ترجمة الحاجات إلى فكر » ويعتبره دائماً خطأ ، إن باشلار في كتابه " La Formation de I'esprit scientifique, vrin p 14 " يعتبر العلم معارضاً للرأي ، إن الرأي عنده يفكر تفكيراً سيئاً ، أو أنه لا يفكر ، وإنما يترجم الحاجات إلى معارف ، وهو عندما ينظر إلى الأشياء من خلال منفعتها فإنه يحول بينه وبين معرفتها ، وهكذا فالرأي عند باشلار لا يمكن أن نقيم عليه أي بناء ، وإنما ينبغي أن نهدمه في البداية ، لأنه العائق الذي ينبغي تجاوزه من أجل الوصول إلى المعرفة العلمية.

إذا كان هذا الرجل قد اشتغل على الرأي في إطار العلم و " كنت " اشتغل عليه في مجال الفلسفة ، فماذا يمكن أن نقول عن هذا التعريف " الباشلاري-الكنتي " إذا نحن أردنا أن ننظر إليه في حقل أوسع وهو حقل الحياة الإنسانية بعامة. ما معنى أن الرأي هو ترجمة الحاجات إلى فكر ؟ وكيف يحمل الرأي في ذاته بذور قصوره ونقصه ؟ ألا يمكن أن يعني هذا أن كل فرد منا يحمل اقتناعات شخصية قد يكون بناها بناء عقلياً-برهانياً ، وقد تكون عبارة القناعات رغبات دفينة وحاجات نفسية عميقة ، تخفي مآرب له ومنافع يريد تحقيقها ، لكنه لا يريد أن يفصح عنها مباشرة فيغلفها في إهاب من فكر ، ظاهره الموضوعية وباطنه عزة نفس وقضاء مآرب ، لقد سمى روبول " Reboul " - وهو عالم لغوي معاصر - هذا الضرب من الفكر بالإديلوجيا التي عرفها بأنها « فكر عقلاني يدعي العقلانية ولكنه يخفي سلطة ما » أي يخفي الهيمنة التي تتجلى بأشكال مختلفة. ومن هنا كان الفصل بين الرأي وبين الذات المتمركزة حول نفسها كما يسميها " Piajet " عملية صعبة ، فالرأي في نهاية المطاف ليس إلا

تعبيراً عن حاجات هذه الذات وهمومها وآمالها وتطلعاتها. ومن خصائص هذا الرأي في نهاية المطاف ليس إلا تعبيراً عن حاجات هذه الذات وهمومها وآمالها وتطلعاتها. ومن خصائص هذا الرأي أنه أول ما يقفز إلى ذهن الإنسان في موقف ما ، أو بعبارة أخرى إنها الأفكار الأولى التي تلبسها عواطفنا وانفعالاتنا ، فتنهض بنا إلى قول أو فعل أو سلوك تكون نسبة الخطأ فيه مرتفعة ، ومن هنا ينصح بمخالفة هذا الرأي ، فيذهب صاحب « الأدب الصغير والأدب الكبير » إلى أنه : (إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإن أكثر الصواب في مخالفة الهوى) ونضيف: إذ الهوى لباس الرأي وإهابه. ويحكى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه أشاح بسيفه عن مشرك كان في قبضته ، لأنه صدر منه سلوك مشين في حق أمير المؤمنين علي ، حتى لا يظن أنه ضربه انتصاراً لنفسه وليس انتصاراً للحق الذي يحمله.

إن القطيعة مع الرأي درجة كبرى من درجات الحكمة لا يستطيعها إلا صنفان من الناس : صنف أثقلته جراحات الماضي وناءت به آمال المستقبل فخبر الحياة وخبرته ، وهؤلاء وهبهم الله تعالى تلك الفراسة التي ينفذون بها إلى الآراء ، ويميزون بها بين الرأي الحسن وبين الرأي الذي هو مطية هوى النفس ، وهم أعز وجوداً في هذا الزمان. وصنف آخر من الناس رزقوا مصاحبة رفقة من أهل المشورة ، يساعدونهم على التمييز بين الرأي الحسن والرأي الذي لم يبلغ درجة الحسن. إن فوائد الشورى[١١] - بالمعنى العام التي تشمل أهل العقل والمروءة الذين يمحضون النصيحة أين ما كانوا ويصبرون على عيال الله - أنها تخلق هذه المسافة الضرورية التي يجب أن تكون بين الفرد وبين هذه الحظوظ النفسية ، المرتبطة بمآرب الذات ومنافعها ، والتي تريد أن تصبح رأياً وفكراً يدافع عنها بالمنطق والحجاج. فليس هناك رأي في الساحة الفكرية لا يمكن أن يكون محل نزاع علمي وفكري ؛ لارتباطه أولاً بهموم خاصة تزعم أنها عامة ، أو تريد بصدق أن تصبح كذلك ،وثانياً لأن كل رأي يظل في نهاية المطاف اجتهاداً في إطار اجتهادات أخرى تحتاج إلى مراجعة وتقويم ، ورحم الله أبا بكر عندما اجتهد في تفسير قوله تعالى عن الكلالة قال: « أقول فيها برأيي ، **فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان** ، الكلالة ما عدا الوالد والولد »[١٢] ورحم الله عمر بن الخطاب عندما قال : « الرأي إنما كان من رسول الله مصيباً فإن الله كان يريه ، **وإنما هو منا بالظن والتكلف** »[١٣].

لكن تبقى نقطة مهمة في مجالات العلاقات الإنسانية الكبرى ، تنظر إلى الرأي باعتباره عملية فكرية قادرة على إسعاف نفسها ، بالمعنى الطبي لهذه الكلمة ، فإنه من الأسباب التي تجعل الرأي وزيراً

للعقل بعبارة ابن عبد البر هو : إدخال عامل التربية في هذه المعادلة الصعبة ، هذه التربية التي تعمل على رفع حاجات المرء وتعلي من شأنها ، فلا تظل حاجاته ومطالبه حاجات ومطالب سوقية آنية مرتبطة بأنانية الذات ومطالبها الضيقة ، وإنما ترتبط هذه الحاجات بمطالب الإسلام العظيم وهموم العصر ومصلحة الحق الذي على أساسه يقوم كل شيء. إن التربية التي تجعل حاجات الفرد حاجات تتجاوز ذاته ما أمكن ، يمكنها أن تخلق أفراداً يعبرون عن آرائهم دون عجب ، يتحرون في ذلك ما أمكن التحري مصلحة أعلى ومقصداً أسمى ، منتظرين أن يُدفع رأيهم ويقوم برأي أقوى ، بمعنى رأي يعبر عن حاجات أسمى من حاجات الرأي الأضعف المفترض. ومن هنا يكون البيان تربية أخرى ؛ تسديداً للإرادة ، وتلقيحاً للعقل وإخراجاً لفضيلته في المعرفة. وبعد: إن الرأي يصاحب الكائن الإنساني في وجوده ، ولن يستطيع عنه فكاكاً ، وإذا كان من أسباب ضلال هذا الكائن أنه كثيراً ما انقاد مع بادئ الرأي ، فإن هذا لا يعني في شيء أن يحال بينه وبين ممارسة حقه في إنتاج الآراء. لقد لبس الرأي في مجتمعنا الإسلامي - بشروط معتبرة - إهاباً من اجتهاد ، باعتباره إفراغ الوسع في طلب الرأي أو الحكم بالاعتبار والنظر[١٤] ، وإن فتح باب الاجتهاد وتشجيعه في جميع الأمور التي لا تمس أصول شريعتنا بشيء ، سواء في مجال التجديد الإسلامي أو في مجال التجديد الحركي ، الذي هو فرع من ذلك التجديد الكبير ، وعدم ادعاء أحد كفاية فكرية وحركية في اجتهاده ، مع ترشيد هذا الاجتهاد بالمشورة والرأي الأحسن من فقهاء الدين وفقهاء الفكر وفقهاء العمل الإسلامي-الحركي ، والعمل على التنبيه إلى الحاجات الكبرى المرتبطة بمصير ديننا في عالمنا وعصرنا ومصير هذه الأمة المهددة في وجودها ، ورفع مستوى الأفراد لتصبح هموم الإسلام همومهم ، أدعى إلى أن يرتفع هذا الرأي عن سفاسفه الذاتية التي يخلق بها ، وهو أمر يؤدي ولا ريب إلى تقوية التغذية الراجعة " feed-back " من أجل تحري الصواب وتصحيح الأفكار ، ومراجعة الذات باستمرار شرط كل تقدم ممكن.

## الهوامش :

(١) أبو الوليد الباجي : المنهاج في ترتيب الحجاج ص:١٣.

(٢) كما يقول ابن القيم في إعلام الموقعين ، ذكره أبو زهرة في تاريخ الجدل ص:١٠٤.

(٣) طه جابر العلواني : أصول الفقه منهج بحث ومعرفة - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص:١٤-١٥.

(٤) مدخل للتشريع الإسلامي ، فاروق النبهان ، دار القلم بيروت ، ص :١٥٠-١٥٧.

(٥) الجويني : كتاب البرهان ، ج٢ ص:٧٦٥.

(٦) جامع بيان العلم ص:١٧٠ و ص:٧٦.

(٧) طه جابر : مرجع سابق ص ١٦.

(٨) جامع بيان العلم وفضله ص:٤١.

(٩) المرجع السابق ص:١٧٧.

(١٠) انظر جامع بيان العلم وفضله ، ج٢ ، ص:٣٨ و ص:٤٠-٤١.

(١١) انظر ما ندم من استشار ، قراءة في عيون الأخبار- صلاح الدين بن إبراهيم ، الرائد العدد:١٧٧.

(١٢) جامع بيان العلم ص:١٠٠

(١٣) أصول الفقه مرجع سابق ، ص:٧

(١٤) كتاب الجدل ، لابن عقيل ، ص:٢.